المقتطف

الجزء الثالث من المجلد التاسع بعد المائة

١ أغسطس سنة ١٩٤٦ — ٤ رمضان سنة ١٣٦٥

المرأة

في ظل الديموقراطية

— ١ —

المرأة عامل من أعظم العوامل المؤثرة في بناء المدنية الحديثة. ولم تكن المرأة في العصور القديمة أقل أثراً منها في العصور المتأخرة. فالقبائل البدائية، وبخاصة تلك التي اتخذت عادات البدو في الارتحال من مكان الى مكان، والجماعات التي عاشت بالصيد، والعشائر التي اتخذت من سلاحها وعضلاتها وسيلة للعيش والحياة والضرب في مناكب الأرض، كل هؤلاء يدينون للمرأة بكثير من أمور دنياهم.

شاركت المرأة الرجل منذ أقدم العصور في العمل، وأخذت بضلع في كل ما يتعلق بالحياة القبلية وحياة الأسرة، وكانت من العوامل الأولية في انتشار جماعات الانسان في بقاع من الأرض، لولا فضلها في العمل، وتدبيرها شؤون الأسرة، لتعذر على الرجل وحده أن يدب فيها أو يكشف عنها. وكانت للرجل ولا شك سلاحاً من أمضى أسلحته، ودرعاً من أقوى دروعه، وحافزاً من أقوى حوافزه، وكفاها أن تكون أول من أنشأ فلاحة الأرض، وأول من اكتشف كيف تنبت الحبة فتثمر في أزمان دورية. فكان هذا بداية الحضارة الزراعية في العالم القديم، وأساسها الأول في العالم الحديث. ولا ريبة في أن

اكتشاف النار ، ووضع أصول الزراعة ، سببان لولاهما لما نشأت المدنيات التي استقرت أول ما استقرت ، على ضفاف الأنهار العظمى .

قال ولز يصف حال الجماعات الاولى :

«على أن أكثر العمل المضني الذي كانت تحتاج اليه الجماعة كان من نصيب النساء . فان الرجل البدائي لم يكن يفهم الشهامة ولا النخوة او النجدة معنى . فكانت الجماعة اذا عزمت على الانتقال من مكان نزلت فيه ، حمل النساء والشابات كل ما يوجد من المتاع ، ومشى الرجال بغير شيء الاّ أسلحتهم ، وهم على استعداد لدفع الطوارىء ، ولا شك في أن العناية بالاطفال ايضاً كانت من نصيب النساء » .

ثم قال : « كانت هذه الحال سبباً في أن يذهب البعض الى القول بأن النساء كنّ أول من بدأ في فلح الأرض . وهذا المذهب لا تنقصه المرجحات الكثيرة . فان جمع الحبوب وسواد الاكل الخضرية كانت من عمل النساء ، لان الرجال كانوا يخرجون دائماً في جولاتهم الطويلة للصيد والقنص . ولا يبعد أن يكون النساء هنّ اللاتي لاحظن ان الحبوب تنمو في الأمكنة التي كانت من قبل مخيماً لجماعات أخر ، يكونون قد بذروا الحبوب على وجه الأرض قرباناً لآلهة من الآلهة عسى أن يعوض عليهم ما بذروا أضعافاً تعد بالمئات . وعلى هذا لا نشك في أن أول طور من الأطوار التي تدرجت فيها الزراعة كانت عبارة عن احتلاب محصول بذوة الغير . فان الجماعات التي كانت لا تزال في طور « الرعاة » يرجح أن يكونوا قد زرعوا ، ليحصدوا اذا انقلبوا راجعين الى مكانهم الاول » .

ولقد تابعت المرأة خطى التطور الذي لازم الرجل في جهاده الشاق نحو الكمال والمدنية . فاذا كان الرجل قد ضحى بالكثير من جهده العضلي والعقلي في بناء دعائم الحضارة وتوثيق روابط المجتمع ، والكشف عن أسرار المجهولات فقد ضحت المرأة بمجهود نفسي وأسرفت في الانفاق من روحها وعواطفها وانفعالاتها ، ما قد يتضاءل أمامه ما أنفق الرجل من جهد العمل والانتاج . واذا كان التاريخ على ما يقول « هيبي » ليس سوى الأطوار الخلقة التي خلقها الروح الانساني على مرّ العصور ، فان في ثنايا تلك الأطوار من روح المرأة قدراً يساوي ما فيها من روح الرجل ، إن لم يكن أكثر ، اذا لم نخشَ المبالغة .

ولقد عانت المرأة من عنف الرجل طوال أحقاب لا يحصيها العدّ ، ما لو استطعنا أن نقدره ، لفاق جهدها في ذلك وحده ، كل ما نقدر الرجل من جهد العمل على إقامة دعائم المدنية والحضارة . فلو لم تخصّها الطبيعة بتلك الخواص النفسية الفذة ، وذلك الادراك العميق لمختلف نزعات الرجل ، وتلك القدرة العجيبة على اختيار مواقف الكرّ حيث يجدي ، والفرّ حيث يفيد ، والإقدام حيث يكون الإقدام نصراً ، والدفاع حيث يكون الإقدام هزيمة ، مدفوعة الى ذلك بغريزة فيها تدفعها الى حفظ ذلك النوع الذي يطلق عليه الاحيائيون اسم « الانسان العاقل » [1] اصطلاحاً ، لظل ذلك الكائن البدائي في جحوره المظلمة ، وكهوفه المرطوبة ، وغاباته الموحشة ، حيواناً لا يفرقه عن بقية الحيوان غير انتصاب القامة .

ذلك بأن الطبيعة قد وجهت غريزة الرجل الى العمل للحاضر وحده ، ولكنها خصت المرأة بغريزة العمل للمستقبل . تحمل وتلد وترضع وتربي وتعلّم ، وتحارب زوات الرجل بالضعف إذا صلح ، وبالقوة إذا حزب الأمر ، موجهة كل ذلك الجهد الى الاحتفاظ بشيئين : الأسرة والولد . الأسرة للحاضر ، والولد للمستقبل . وليس لها من كل ذلك غنماً ولا ربحاً . ومن ثمّ كان لها تلك الغرائز النبيلة السامية .

* * *

لم يصلنا من تاريخ المرأة الاجتماعي في العصر المصري القديم شيئاً يتيح لنا البحث في شئونها بحيث نحدد مكانتها في ذلك المجتمع تحديداً يرضي التاريخ الصحيح . ولكن يكفي أن نعرف انها بلغت من المكانة في ذلك المجتمع ما لم تزل له مثيلاً في الحضارتين اليونانية والرومانية . فقد بلغت في مصر القديمة مرتبة الملك ، وكفى بذلك دليلاً على انها بلغت في مصر ، وفي فجر التاريخ البشري ، منزلة السلطة العليا في دولة استبدادية . لا أثر للديمقراطية فيها . ولم تبلغ في الحضارة اليونانية من الأثر العملي ما بلغت في الحضارة الرومانية . ومن أعجب حقائق التاريخ ، أن تتبوأ المرأة أعلا مدارج المجتمع في حكومة استبدادية كحكومة مصر القديمة ، وتتوارى من أفق المجتمع كلية في بلاد اليونان ، التي ورثنا عنها النظم

(١) Homo sapiens

الديموقراطية الحديثة . ولا شك في انها كانت ذات أثر بالغ في حياة الرومان ، حتى لقد وجهت سياسة الدولة في عصر أوغسطوس ، أول قياصرة الرومان ، زمناً خص بأنه شهد نشأة الامبراطوريات العظمى في العالم .

وهكذا كان للمرأة أثر بيّن في تاريخ الانسان في عصور قديمة وفي عصور حديثة ، وسوف يكون لها في المستقبل أثراً أعظم ، وتاريخاً أروع وأخلد .

* * *

لما سقطت الدولة الرومانية ، وحطمها الهمج الذين هبطوا أوربا من نجاج آسيا ، وورثت أوربا عنهم نظام القطائع ، انكفأت المرأة بغريزتها راجعة الى تلك الحدود التي لزمتها خلال عصور المسيحية الاولى ، ونزلت عن تلك المكانة السامية التي تربعت على عرشها في بعض المدنيات القديمة . ولقد ظلت المرأة على هذه الحال حتى كانت العصور الحديثة ، فأخذت في أوربا شيئاً من مكانتها التي بلغتها في مصر القديمة ، إذ تربعت على عرش الملك ، ورنّ صوتها الفريد في نجاج التاريخ مرة أخرى .

عندما أدركت أوربا الثورة الصناعية ، ولقنتها مبادىء الحرية الديموقراطية ، وساهمت المرأة الرجل في التعليم ، تطلعت الى حقوقها السياسية ، وأخذت تعمل جاهدة في سبيل تحقيقها لتكمل بذلك ذاتيتها . فلئن كانت المرأة قد حققت ذاتها وأثبتت وجودها في ميادين كثيرة كالامومة والزوجية والاسرة والجهاد والحرب والسلك ، فإنها ولا شك تحتج اليوم إلى ان تكمل ذاتيتها بأن يكون لها في ميدان السياسة والاجتماع والعمل ، تلك الحقوق التي حرمتها خلال العصور الغابرة . تلك الحقوق التي لا ينكرها الشرع ولا تأباها الطبيعة .

* * *

ان الكلام في حقوق المرأة حديث جديد في المدنية الاوروبية . فبعد ان سقطت المرأة عن عرشها المتواضع الذي تربعت من فوقه في العصر الروماني ، غشت عليها غشاوة القرون الوسطى ، فنامت راضية ، حتى أدركتها العصور الحديثة ، فهبت من غفوتها تطالب بحقوقها السياسية ، تلك الحقوق التي بلغت في روسيا السوفيتية ، ولأول مرة في تاريخ الدنيا ، مبلغ الحرية التي ساوت فيها الرجل مساواة تامة . أما بداية جهادها في سبيل ذلك ، فيرجع الى ما

قبيل الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ، إذ بدأت تحتل مشكلاتها العالمية مكاناً في آداب الأمم الغربية .

غير ان جهاد المرأة في ذلك العصر كان جهاداً سلبيًّا ، دليلنا عليه أن كثيراً من دعاة الكتّاب والفلاسفة قد خصوها فيما كتبوا ببحوث وإشارات عبرت عن أن في جوّ المجتمع مشكلة هي مشكلة المرأة ، ومسألة معقدة هي مسألة الشطر الآخر من الجمعية البشرية .

ومن أعجب العجب ان « جان جاك روسو » ، على كثرة ما أشاد في كتابيه « العقد الاجتماعي » و « أميل » الذي كتبه في أصول التربية ، واستمساكه فيهما بنظرية أن الحرية حق طبيعي للانسان ، لم يذكر أن للمرأة حقًّا يقال له « الحق السياسي » . وجاراه في ذلك بقية الكتاب الذين نحوا نحوه واتبعوا مذهبه . ذلك في حين أن مذهب هؤلاء جميعاً هو أن الحق السياسي حق طبيعي لا يسقط عن الانسان ولا يسلب منه حتى ولو تعاقد هو على حرمان نفسه منه ، بل قالوا ان التصويت حقٌّ عام لكل أفراد الجمعية ، وانه جزء متمم للحرية فلا يسلب ولا يتنازل عنه أو يحرم منه فردٌ ما من الأفراد ، ذلك بأن الحرية شيء طبيعي ، وكذلك تكون متعلقاتها وتوابعها .

أليس عجيباً أن أولئك الذين يقولون بتلك الحرية الواسعة ويقدّسونها ، وينزلونها هذه المنزلة ، التي لا شك في أنها صحيحة من كل وجه ، هم بأنفسهم الذين يمضون في بحوثهم قائلين بأن يظل نصف الراشدين من مجموع الأمة عطلاً من هذه الحقوق ، وان يحرمن النصف الآخر من التمتع بها ، فيطغى على حقهنّ فيها ، فلا يجعل لهنّ نصيباً من الاشراف على التشريعات التي تتعلق بأموالهنّ وأحوالهنّ الشخصية ، بل هي قد تنصب على كل أقدارهنّ في هذه الحياة الانسانية ؟

لقد كتب « روسو » عن المرأة وفصل الفوارق التي تفصلها عن الرجل . ولكن لم ينزل كاتب من كتّاب القرن الثامن عشر الى ذلك الدرك الذي انحدر فيه « روسو » اذ قال : « خلقت المرأة لتكون ملهاة للرجل » . غير انه عقب على ذلك بقوله :

« ينبغي أن يكون تعليمهنّ متصلاً بحاجات الرجل ، فتكون له تسلية وفائدة ، وموضعاً لحبه واحترامه ، وتربي أولاده صغاراً ، وتعنى بهم كباراً ، وتبذل لهم النصح ، وتلاطفهم

بالعطف حتى تصبح حياتهم هادئة مرحة . كانت هذه الأشياء خلال كل العصور واجبات المرأة ، ومن أجل هذه الواجبات ، يجب أن تتعلم المرأة من الصغر » .

بل ان « روسّو » قد ذهب في تقييد المرأة إلى أبعد من ذلك . ذهب الى وجوب تقييدها دينيًّا ، فلم يجعل لها حق اختيار العقيدة التي تتصل من طريقها بباريها ، وقضى بوجوب ان لا يكون لها دين غير دين زوجها ، فهي مقيدة به محصورة في حدوده . شأنه في ذلك شأن « فلوطرخوس » في العصر الروماني ، وقد قضى كلاهما بأن على المرأة أيضاً أن تعمل على غرس بذور دينها ، الذي هو دين زوجها ، في عقل بناتها ، وإلاّ فإنها تكون قد قصرت في أداء واجب من أقدس الواجبات . قال :

« حتى ولو كان ذلك الدين زوراً محضاً ، فان مراعية المرأة وبناتها ، وخضوعهنّ لذلك الشرع الطبيعي ، تكون عند الله وسيلة لغفران الخطيئات . ومن أجل ان النساء غير قادرات على أن يحكمنّ على الأشياء حكماً ذاتيًّا ، فعليهنّ أن يخضعنَ لاحكام آبائهنّ وأزواجهنّ خضوعهنّ لحكم الكنيسة » .

لم يشذّ عن هذه الطريقة التي اتبعها كل كتّاب الثورة الفرنسية غير الفيلسوف « كوندورسيه » ، فقد ظهر في بعض كتاباته ظهرت له سنة ١٧٨٧ ، وتكاد تكون من منسيّات ما كتب ، إلى القول بأنه من المستحيل أن تستقر حقوق الانسان على قاعدة ثابتة ، ما لم يُعترف بهذه الحقوق للمرأة ، وإن كل الأسباب التي أدّت إلى الاعتقاد بأن لكل رجل الحق في أن يكون له صوت مسموع في حكم بلاده ، هي الأسباب التي تحملنا على إضفاء هذه الحقوق على النساء . قال :

« وعلى الأقل للنواتي منّ أرامل أو غير متزوّجات » .

ولو لم يقيّد « كوندورسيه » رأيه بذلك القيد الذي هو أثر من آثار الفكرة السائدة في عصره ، إذاً لكان أول رائد دافع عن حقوق المرأة في العصر الحديث .

ولا ريب أن موقف كتّاب فرنسا من المرأة في ذلك العصر كان فذّاً غريباً ، إذا تذكرنا « ماريا تريزا » والملكة « كاترين » في روسيا ، والمكانة العليا التي شغلتها كل منهما في سياسة بلادها خاصة وسياسة أوربا عامة . أضف الى ذلك المنزلة السامية التي احتلتها نساء موهوبات

في الاجتماع والأدب والبحوث العقلية وفي الحياة السياسية ، منذ انقضاء عصر لويس الرابع عشر . ناهيك بما كان للمرأة من موضع في إلهاب روح الثورة في فرنسا ، وما كان لها من تضحية فيها . وأية تضحية أعظم وأنبل من تضحية مدام « رولان » و « شارلوت كورداي » وأولاهما من الموهوبات في السياسة والادب ، والثانية من الفدائيات . كانت الأولى من أعضاء حزب « الجيروند » المبرّزين فيه ، وكانت الثانية من المضحيات اللواتي تذكرهنّ فرنسا الى جانب « جان دارك » ، وقد سقطتا على المقصلة مع رجال من أبرز رجال العصر .

ناهيك بما عليه كثير من المؤرخين الذين يعتقدون انه ما من كاتب استطاع أن يزن حوادث ذلك العصر بميزان أدقّ أو عقلية أرحب أو أفق أوسع من مدام « ده ستايل » . كذلك نعلم ان انساناً مّا من الذين عاصروا الثورة ، لم يستطع أن يلهب بعواقبه نيران الحقد والغضب استمساكاً بوجهة من النظر السياسي ، فكان أعنف وأصبر على مكاره ذلك الموقف النكد من الملكة « ماري انطوانيت » ، وهي بشهادة الجميع من أكثر اللواتي سقطن على المقصلة استنارة فكر واستقامة رأي وثبات جنان .

قيل إن نابليون قابل ذات يوم أرملة « كوندورسيه » وكانت من زعيمات الثورة فخاطبها محتدّاً وفي نبراته نغمة الآمر الذي لا ينتظر من يخاطب جواباً : مدام — إني لا أحب أن تتدخل المرأة في السياسة — فأجابته على الفور : لك الحق أيها الجنرال . ولكن من الطبيعي في بلد تحتزّ فيه رؤوس النساء ، أن يكون لهنّ الحق في أن يسألنَ عن السبب في ذلك !

ولا يجدر بنا أن نغفل في هذا المقام عن ذكر ما كان للمرأة من أثر في عصر النهضة في أوربا . ولنضرب لذلك مثلاً بما كان لتعليمهنّ من أثر في حياة ذلك العصر .

وأول ما نذكر منهنّ ، بل أول من تتخذ منهنّ مثالاً يحتذى وقدوة يتأسى بها « كاترينا سفورزا » (١٤٦٢ — ١٥٠٩) فقد نشأت بعناية جدتها الدوقة « بيانكا ماريا فسكونتي » . وكانت « بيانكا » من مشهورات أهل زمانها . ففي كل المعارك التي اشتبك فيها زوجها « فرنسسكو سفورزا » كانت مساعده الاول ونصيحه الامين ، بل كانت في بعض الأحايين قائداً مقداماً مرناً ، فقادت الجيوش في حومة الوغى والحدوث بهم الى المطامع تناضل نضال النمرات . وكانت الى جانب هذا محبوبة الجماهير لطهارة دينها وعفتها وحدبها

عن المظلومين والضعفاء، وحنوّها على الذين أخنى عليهم الظلم، وفصل بهم الاستبداد. كانت حمامة السلام ورسول الشفقة ويد الرحمة، كلما استعرت نيران البغضاء واستيقظت روح العداء، وفشت الاحقاد وحمت الشماتة. وبهذه الصفات علّمت «كاترينا صفورزا» الحكم كيف يكون.

تلقت «كاترينا» من التعليم قسطاً وافراً، على النهج الذي اتبع في ذلك العصر. وكانت التقاليد القديمة قد أخذت تنهار قبيل عصرها، وتحل محلها تقاليد جديدة. فان نساء العصر الاول — أي عصر ما قبيل النهضة — كنّ محجوبات عن الاشتراك في معضلات الحياة العامة، والاخذ بقسط في معالجة مشاكل العصر، على كثرة ما كان فيه من مشكلات. فكان من حظ «كاترينا» أن يقضي قبل عصرها على هذا التقليد، فيأخذ النساء بضلع وافر من الاشتغال بشؤون السياسة والحرب، وتدبير أمور الدويلات والاحتكام في أمور غير يسير من الظروف التي عدّلت وجه التاريخ الحديث.

بلغت العناية بأمر الثقافة النسوية في عصر «كاترينا صفورزا» أعظم مبالغها. فان سيدات ذلك العصر، على ما يقول ثقات المؤرخين، قد تلقين من العلم ومن أساليب التربية والتنشئة ما قد يندر أن يتهيأ لمثيلاتهنّ من بنات عصرنا هذا. فقد برزن في الآداب القديمة وفي اللغتين اليونانية واللاتينية، قراءة وكتابة وتفقهاً، كما أعطين قسطاً وافياً من العلم بآداب عصرهنّ، في بلادهنّ وفي غيرها من البلاد، وتثقفن في الفن والعلم والموسيقى والرقص وركوب الخيل والألعاب الرياضية.

ومن مشهورات ذلك العصر «سيسيليا جونزاجا» و «إبولينا صفورزا» عمة كاترينا صفورزا، وبعد ذلك بسنين قلائل اشتهرت «ايزابلا دستطه» و «إيزابلا جونزاجاه»، وكل منهنّ مثال يحتذى في الثقافة الواسعة والقدرة الشاملة والعبقرية الكاملة. فقد نعلم ان «إبولينا صفورزا» وكانت في الثانية عشرة من عمرها، قد ألقت خطبة من تأليفها باللغة اللاتينية، ترحيباً بالبابا «بيوس الثاني» عند ما حلّ ضيفاً على أبيها. ونعرف ان «سيسيليا جونزاجا» كانت تكتب اللغتين، اليونانية واللاتينية، وتقرؤهما وهي في الثامنة

(البقية في آخر باب المكتبة)